بين الهزل والجد

شيخ كوني آيلند

بين الاهرام وابي الهول

قلت في نفسي حين سفري من نيويورك ماذا يقول غداً صاحبنا الشيخ ؟

لقد كانت تسرني صحبته في كوني آيلند (١) coney Island ويظهر ان صحبتي كانت تسره لانني ما ذهبتُ يوماً اليها الاّ وأسرع اليّ اول ما نقع عينه علي . وكنت عاهدته على ان ازوره مرة في الشهر على الاقل فكنت اذا زرته ترك عمله في حانوته الذي انشأه للتنجيم ومعرفة الغيب من النظر في اليدو سار معي على شاطيء البحر . فنقضي هناك ساعة او اكثر في الثرثرة والكلام عن اميركا وسوريا ومصر . واحياناً يشرد بنا الخيال فيشمل كلامنا كل قطر وكل مصر . هذا ونحن جالسان على مقعد وامواج الاوقيانوس الاتلانتيكي تتكسر تحت اقدامنا . وصوتها يدوي في الفضاء تحت الظلمة الدامسة دوياً تنزعج له النفس لما تتصوره من هول ذاك البحر وعمقه الذي كم فيه من رمس .

ولا انسى الليلة الاخيرة التي كانت فيها آخر زياراتي له . فانه وثب بغتة عن المقعد

---

(١) ✻ الجامعة ✻ كوني آيلند بلدة الملاهي والالاعيب قرب نيويورك . وهي تفتح صيفاً وتقفل شتاء . ويقصدها في كل ليلة عشرات الوف من الناس . وفي ايام الحر الشديد يبلغ زائروها في نهار الأحد نصف مليون شخص . وفيها الملاعب والحانات والفنادق واما كن للالعاب المدهشة المتعددة وكل ما يمكن ان يتصوره الذهن وينطوي تحت لفظ (لهو ولعب) حتى الخلاعة التي هي من لزوميات الملاهي على ما يظهر . وهي ذات قباب وابراج تنار في وسائر الملاهي بملايين من الانوار الكهربائية فتظهر عن بعد كأنها شعلة من نار تلتهب . وهي والمنارة اول ما يظهر من نيويورك في الليل للمسافرين من أوروبا الى اميركا .

وثبة المأخوذ وصاح (وجدتها وجدتها) فقلت مالك يا ارخميدس . فقال بجد ورزانة لا تمزح فانني اكتشفت اكتشافاً اعظم من اكتشافه . قلت هات اكتشافك يا صاحب الاكتشافات . فقال ماقولك في ان امد يدي الآن فانال بها مصر . فقلت أيدك طويلة الى هذا الحد . قال شكراً لك فانك تتهمني بطول اليد ولكنني اجد ولا امزح افلا تصدقني . قلت بلى بلى صدقتك واعفيتك من التجربة . قال لا بل اجرب التجربة امامك وهمّ بالمسير . فامسكته بطرف ثوبه وقلت له . ياشيخي دع الشعوذة للحانوت . اصطياداً للقوت . وادّع لدى الاميركيين علم الغيب والملكوت . والجمع بين اللاهوت والناسوت . والسفر على اجنحة الرياح او في بطن الحوت . وتحويل اصداف البحر الى زبرجد ولؤلؤ وياقوت . واما انا صديقك في غربتك ورفيقك في دار هجرتك فانني عليم بصناعتك وقدرتك فلا حاجة الى زيادة علمي بها

فاطرق حين سماعه هذا الكلام اطراق متألم يكتم ألمه . ثم تناول قلمه . وخطّ به على قرطاس صغير اخرجه من جيبه هذه العبارة « كنت اظنك من الافاضل . فاذا بك اقل من باقل » فكانت حينئذ نوبتي في الاطراق والالم . ثم نظرت اليه وضحكت وقلت « سبحان من لم يعلمك مالا تعلم »

فجلس بجانبي بعد ان ازال ألمه بألمي وقال — لماذا اسرعت في ملامي قبل ان تفقه كلامي . اذا كنت اتخذ الشعوذة مع سذج الاميركان فلا اتخذها مع اصدقائي . ولو تأملت في ماقلته لك واصطبرت حتى اتم كلامي لرأيت ما ينطوي تحت هزله من الجد . انني اعيش هنا غريباً عن وطني . لاشيء يسرني وكل شيء يحزنني . وليس لي في هذه الغربة الاّ سلوة واحدة . اتعلم ماهي ؟ هي هذا البحر الذي امامك . ففي كل ليلة بعد اقفالي الحانوت اقصد هذا الشاطئ واقف عليه وأُرسل رائد التصور والخيال فوق مياه البحر الى جهة الشرق . واطلق العنان للوجد . الى مكان فيه للاخوة والآباء والاجداد مهد ولحد . ثم ادنو من هذا الماء فاغمس كفي فيه فاجد لذلك لذة ليس بعدها لذة . و يخيل الي حين اصافح هذا الماء انني اصافح مصر نفسها . اليس هذا الاتلانتيكي متصلاً بالبحر المتوسط في جبل طارق ؟ ثم اليس البحر المتوسط معانقاً مصر وبعض ثغورها . واذا كانت امواج الكهرباء اللاسلكية يمكنها ان تسير على سطح البحر من الغرب الى الشرق فما يمنع ان تسير كهربائية نفسي المنقدة من هذا الشاطئ الى الشاطئ المصري مثلاً . ثم امستبعد انّ دقائق هذا الماء التي غمست كفي فيها قد كانت من قبل على شاطئ مصر ونقلها الى هذا

الشاطئ الزمان وتداخل البحرين وامتزاجهما . الا تكون كفي قد نالت مصر او جزءًا من مصر حين وضعتها فيها

فادهشني التأويل الشعري الجميل الذي اوّل اليه كلامه . وصمتّ حينًا اسائل نفسي هل اجزيه عن هـذا التأويل باطلاعه على ما كان في عزمي من تقويض الخيام وتوديع تلك البلاد بسلام . فقال مالك لا تجيب . فقلت أأنت مقيم يا شيخي زمنًا طويلاً في هذه البلاد . فرفع رأسه الى السماء وقال : حتى يشاء رب العباد . فنهضت وقلت له . تعالَ تعالَ اذًا نصافح معًا سوريا ومصر من وراء البحرين . واعذرني لانني اسأت الادب معك . ومن أقرَّ بذنبه فلا ذنب له

ثم اخذت بيده واخذ بيدي ودنونا من الماء وغمسنا فيه كفينا ومسحنا به وجهينا وعدنا الى مجلسنا ساكتين

انني هنا اجـد ولا امزح . لقد غمست كفي يومًا في ذلك المـاء واحسست بشيءٍ يحس به كل غريب اذا لقي صديقًا قديمًا . وكان ذلك في اول مرة واجهتُ فيها مياه الاوقيانوس الاتلانتيكي في شاطئ كوني آيلند لان هذه المياه لا تصل الى مرفإ نيويورك الذي تحيط به مياه نهر هدسن . فيا لذة تلك الليلة التي جلستُ فيها منفردًا لاول مرة بازاء ذلك الاوقيانوس الهائل وهو يرغي ويزبد من جهة . واصوات الافراح والملاهي في كوني ايلند تعلو من جهة أخرى . وزئير مدينتي بروكلين ونيويورك يرتفع الى السماء من جهة ثالثة . لقد كان امامي اعظم ما في الدنيـا من بر وبحر وبداوة وحضارة وجد ولعب . ولكن كل تلك العظائم لم تكن لتنسيني الزوايا الشرقية الصغيرة التي ربيتُ ونشأت فيها

ولمـا استقبلت بي الباخرة بلدة كوني آيلند وهي خارجة من نيويورك اعدتُ هذا السؤال في نفسي : ماذا يقول غدًا صاحبنا الشيخ ؟

وفي ذات يوم وانا اجول في الجزيرة في ضواحي القاهرة لقيتُ جمهورًا من الناس مجتمعًا حول العوبة منصوبة بجانب سطح قهوة قرب جسر الجزيرة . وكان الاولاد يصعدون من جانب على السطح المائل المتحرك الذي يرفعهم ثم يتزحلقون من جانب آخر وبجانب المزلقة على الارض شيخ وفتى واقفان يضحكان . فوقفت مع الواقفين اسمع وأرى فسمعت الفتى يقول للشيخ باللغة الانكليزية « اين هذا مما عندنا في كوني آيلند » فدهشت عند ذكر كوني آيلند ودنوت من الشيخ والفتى لاستخبر خبرهما . فلما واجهتهما وانعمت النظر في وجهيهما عرتني دهشة واية دهشة . ذلك انني عرفت شيخ كوني آيلند الذي فارقته في

نيويورك . فبسطت اليه يدي وقلت : سلام على الشيخ الكريم . فالتفت الشيخ نحوي التفاتة متبين ثم ضحك حتى بدت نواجذه و بسط يده وقال : سلام على المؤمنين الصادقين الذين لا يسافرون دون ان يودعوا اصدقاءهم . فقلت ومتى كان القدوم . فقال متهكما حين كان القدوم . فقلت هل هي رحلة ثم اوبة الى ديار الغربة . ام هي اقامة واستكانة في ارض الكنانة . قال لا لا بل هي الاقامة واستكانة والحمد لله رب العالمين

ثم اخذ بيدي وقال كنا منطلقين الى الاهرام لان رفيقي هذا الشاب الاميركي متشوق الى زيارتها فهل ترافقنا اليها فاعرفك الى هذا الصديق الجديد الذي حلت صحبتي لهُ بعد سفرك محل صحبتك ولذت لي عشرته كعشرتك واحاديثه ومناظراته كاحاديثك ومناظراتك . وهناك نأخذ باطراف الحديث القديم منه والحديث . فنتذكر معاً كوني آيلند وما فيها من الاعاجيب والبدائع . وما حولها وراءها من الغياض والرياض التي تغرد فيها الاطيار السواجع و يعطر جوها ارج الزهر اليانع . والمستنقعات التي تطير فوقها الحباحب وتنق فيها من بعيد الضفادع . فقلت انني كنت ايضاً منطلقاً الى الاهرام لانها قبلة كل وافد على مصر وقد اشتقت ان اراها فاذهب بنا نصافح الدهور والاجيال الماضية بمصافحتها

فركبنا احدى مركبات الترامواي الى الاهرام ولم يكن فيها احد غيرنا . ولما استقر بنا المقام وتعرفت الى الاديب الاميركي وتعرّف اليّ التفت الى الشيخ وقلت لهُ . حدثنا الآن ياشيخي ماذا رأيت في الشرق من جديد . وكم سنة قضيت في هجرتك له . وما تراه بين شؤونه وشؤون البلاد التي تركتها من الاختلاف والائتلاف

فقال الشيخ . يابني هجرت الشرق منذ خمس عشرة سنة . وقد عدت الآن اليه . فماذا اقول لك . في نفسي جثة ميتة اجرها وتجرني فلا اخلص منها ولا تخلص مني

فهنا استويت جالساً بعد ان كنت متكئاً على جدار المركبة . وقلت للشيخ رحماك لا تعد الى الرموز والالغاز . اتذكر ليلتنا الاخيرة في كوني آيلند على شاطىء الاتلانتيك

فضحك الشيخ وقال وهل الذنب ذنبي اذا كنت على الدوام لا تفهم كلامي . قد كان يقال لاحد شعراء العرب (لماذا لا تقول ما يُفهم) فكان يجيب (ولماذا لا تفهم ما يُقال). واي كلام اوضح وافصح مما قلت . قلت (في نفسي جثة ميتة اجرّها وتجرّني فلا اخلص منها ولا تخلص مني) وهذا تعبير بليغ وكلام جزل و بيان واضح عند اللبيب البصير . ولكن لا تطمع في ان افسره لك اذا كنت لا تفهمه دون تفسير . ماذا ؟ اتريد ان تقيم عليّ اهل البلد . بل اهل الكون بأسره . فافهم والا فلا تلم غير نفسك

فقلت ان المفهوم من عبارتك انه كان في نفسك شيء كنت تعتقد به — ولا اعلم هل هو ديني ام ادبي ام فلسفي ام سياسي ام اجتماعي — ثم نسخه من نفسك شيء آخر افضل منه . ولكن الشيء القديم بقي عالقاً بنفسك قابضاً عليها مع معرفتك خطأه . وتحاول التملص منه لتعمل بمعتقدك الجديد فلا تقدر — اهذا هو مرادك ؟

فنظر اليّ الشيخ وقال حقاً انك لست بجاهل الى الحد الذي ظننته . ولكن ايها الذكي النبيه مادخل المعتقد هنا . وما لنا ولهذا الخرف الذي جرى به لساني . هي عبارة لامعنى لها يا بني فلا تعبأ بها وارقب رأس الهرم فانه سيظهر قريباً (وستأتي بقية احاديث الشيخ في اجزاء متتابعة)

حج سمو الخديوي

وسكة الحجاز الحديدية

حجّ سمو الخديوي في الشهر الماضي وصرف في اراضي الحجاز عدة اسابيع . وقد استقبل سموه حكامُ الحجاز واعيانها بما يليق بمقامه الرفيع من الاجلال والاكرام . وودعه بقصيدة غراء جناب المفضال احمد بك شوقي شاعر الديوان الخديوي المشهور

فمنها قوله يخاطب رب البيت الحرام معتذراً عن السفر مع سمو الامير

دعاني اليك الصالح (ابن محمد) فكان جوابي صالح الدعوات
وخيرني في سابح او نجيبة اليك فلم اختر سوى العبرات
وقدمت اعذاري وذلي وخشيتي وجئت بضعفي شافعاً وشكاتي
و يارب لو سخرت ناقة صالح لعبدك ما كانت من السلسات
و يارب هل تغني عن العبد حجة وفي العمر ما فيه من الهفوات
وتشهد ما آذيت نفساً ولم اضر ولم ابغ في جهري ولا خطواتي

الى ان قال وهو اجمل مافي القصيدة مخاطباً الجناب الخديوي قبل رحيله :

اذا زرت يا مولاي قبر محمد وقبلت مثوى الاعظم العطرات
وفاضت من الدمع العيون مهابة لاحمد بين الستر والحجرات